الجزء الثاني

الملامح

الفصل 3

المناهج الروحية والدينية للاعنف

محمد أبو نمر Mohammed Abu-Nimer[1]

باتت حركات اللاعنف وإستراتيجياته واضحة إلى حدٍّ بعيد خلال العَقْدين الأخيرين؛ بوصفها وسائل للمقاومة وأطر عمل للدفاع عن العدالة، ففي بداية التسعينيَّات استخدم عدد من مجتمعات أوروبا الشرقية - مثل جورجيا وبولندا- إستراتيجيات اللاعنف لإسقاط أنظمة سياسية سلطوية وإقامة قيادات جديدة، وإلى عهد قريب تبع عدد من المجتمعات العربية هذا المثال، فثارت ضد أنظمتها الديكتاتورية. إضافة إلى ذلك شوهد استخدام أساليب اللاعنف في حركات السلام، وحركات الدفاع عن البيئة، والحركات العمالية، ووقف العديد من رجال الدين في مقدمة هذه الحركات، وجادلوا دفاعًا عن ثورات اللاعنف، وغالبًا ما كان المحللون ووسائل الإعلام أيضًا يجهرون بأصواتهم المؤيدة لإستراتيجيات اللاعنف.

وعلى الرغم من تزايد انتشار حملات اللاعنف خلال العَقْدين الأخيرين، فلم يزل هناك الكثير من النقاش المتعلق بدوافعها وأهدافها وإستراتيجياتها ومعايير نجاحها، ورغم أن التمييز بين العنف المبدئي والبرغماتي قد يكون عشوائيًّا إلى حدٍّ ما، فسوف يركز هذا الفصل على ما يطلق عليه - غالبًا- المدرسة (المبدئية) في الكفاح اللاعنيف، التي تستمد جذورها من التقاليد الفلسفية والأخلاقية والروحية التي تؤكد قدسية الحياة، أما الدوافع التي يحملها الناشطون الملتزمون بهذا النهج اللاعنيف في النضال فتعود لإيمانهم بأن هذا هو النهج (الصحيح) أكثر مما هو لأسباب إستراتيجية أو عملية (كينج 1998) (King 1998)، واستنادًا إلى نصوص الأحاديث الدينية الرئيسة (البوذية، والطاوية، والهندوسية، والبهائية، واليهودية، والمسيحية، والإسلامية)، إضافة إلى أمثلة من عالم الواقع حول أعمال اللاعنف التي قام بها ناشطون من خلفيات دينية أو أخلاقية (القادة الروحيين، والمنظمات غير

الحكومية، .... إلخ)، فسوف يتتبع الفصل المُسوِّغات، والإستراتيجيات، والأساليب المستخدمة في النهج (المبدئي) من اللاعنف، ويناقش جوانب التشابه والاختلاف الموجودة ضمن هذه الفئة الواسعة (أبو نمر 2003، ماجد 2005، زارو 2008) (Abu-Nimer 2003; Magid 2005; Zaru 2008).

في مناقشة هذا النهج، يعتمد الفصل على خبرة وحكمة قادة بارزين مثل ثيت نات هانه، وغاندي، ومارتن لوثر كينج، الابن، لبيان الاختلافات بين الملتزمين فلسفيًّا باللاعنف لأسباب أخلاقية، وبين من اختاروا اللاعنف لأغراض إستراتيجية، وتتضمن الأسئلة الأولى التي تقود هذه المناقشة ما يأتي: ما دور التقاليد الدينية في حركات المقاومة اللاعنيفة؟ ما الذي يميز النهج المبدئي في اللاعنف عن النهج البرغماتي؟ هل هناك حالات أبدى فيها الملتزمون روحانيًّا بممارسة اللاعنف استعدادًا لاستخدام القوة؟ كيف يمكن للباحثين أو الممارسين الرد على الانتقادات بأن اللاعنف ساذج ولا يمكن أن ينجح في بيئات متطرفة؟

الافتراضات الشائعة المتعلقة باللاعنف المبدئي

في سياق البحث في موضوع اللاعنف المبدئي ومعالجة الأسئلة المبينة أعلاه، هناك عدد من الافتراضات لا بد من معالجتها؛ **أولًا**: غالبًا ما يتم تصور أن اللاعنف أعلى أخلاقيًّا من العنف، ليس لأن العلماء والناشطين مالوا إلى عزو مستوى أعلى من الأخلاق إلى اللاعنف، بل أن العديد من الحضارات التاريخية والتقاليد الثقافية ربطت بين القدرة على الامتناع عن استخدام العنف كفضيلة ومعيار أخلاقي أعلى، وبغض النظر عن طبيعة العنف التي يجري نشرها، فإن الناس يشعرون بأنهم مجبرون على شرح دوافع ومسوِّغات استخدامه (سواء لأنفسهم أو للآخرين).

ثانيًا: اللاعنف خصلة يتعلمها الإنسان، ولدى كل مخلوق بشري القدرة على أن يرد على موقف ما بشكل عنيف أو غير عنيف بغض النظر عن خلفيته الفردية أو الجماعية، ولكن اختيار طريقة الرد على الاستفزازات (مثل التمييز أو العنف) هو قرار إدراكي ومعرفي

يتشكل جزئيًّا بعوامل بيئية، وبالتالي تؤدي عوامل التنشئة الدينية والثقافية دورًا حاسمًا في تنظيم ردود الفعل العنيفة وغير العنيفة على الاستفزازات الخارجية والداخلية (فراي وبيوركويست 1997) (Fry and Bjorkqvist 1997).

ثالثًا: اللاعنف موجود على سلسلة متصلة (continuum)، واللاعنف والسلوكات والتوجهات العنيفة هي ردود موجودة على سلسلة متصلة أكثر مما تمثل انقسامًا واضحًا، ويبدأ المقياس من التوجه السلمي المطلق في أحد طرفيه وينتهي بالتبني المطلق لجميع أشكال الردود العنيفة على الجانب الآخر، والمعتقدات والتوجهات المختلفة المتعلقة بالمقاومة السياسية تقع ضمن هذه المتسلسلة.

رابعًا: لا تعكس الأعمال الجماعية جميع معتقدات الأفراد، وما زال على الحضارة البشرية أن تجسر الفجوة بين القيم الأخلاقية الفردية والسلوكات ومظاهرها الجماعية، هذه الفجوات موجودة في جميع المجالات العامة والخاصة التي يتبنى فيها الأفراد قيمًا وسلوكات معينة، في حين يعجز مجتمعهم أو مجموعتهم عن تبني مثل تلك القيم والعمل بموجبها، وبالتالي يمكن للأفراد أن يؤمنوا باللاعنف، ويمكن للبعض أن يمارسوه في حياتهم الخاصة والفردية، إلا أن تلك الممارسات تبقى مقتصرة على مجموعات صغيرة ولا يتم التعبير عنها على نطاق واسع؛ بوصفها أعرافًا ثقافية أو اجتماعية.

الدين واللاعنف

غالبًا ما تعتمد قيم وممارسات اللاعنف على الطقوس الدينية والمعتقدات الروحية وتستلهم منها، ويؤكد العديد من الباحثين أن الدين مصدر أساسي لتصور اللاعنف وتطبيقه، وحسب كل من باراش وويبل فإنَّ «العنف يرتبط بشكل وثيق بتقاليد وأخلاقيات دينية معينة، ولاسيَّما النزعة السلمية البوذية، والهندوسية، والمسيحية» (2009، ص.458) (2009, p. 458)، إلا أن تلك التقاليد الدينية ليست الوحيدة التي لها تاريخ في اللاعنف؛ حيث إن هناك الكثير من الوقائع في التاريخ الإسلامي التي تبين استخدام أساليب اللاعنف،

منها (13) سنة من مقاومة النبي (عليه الصلاة والسلام) ونضاله في مكة، ورواد اللاعنف المسلمين من أمثال خالص جلبي، وهو طبيب سوري أكد العلاقة بين الإسلام واللاعنف، وهو الذي صاغ تعبير **الجهاد المدني** (أبو نمر 2004) (Abu-Nimer 2004)، وفي اليهودية كتبت الحاخام لين جوتليب عن النهج اليهودي في اللاعنف (2011)، واستخدمت مجموعات مثل (شومير شالوم) المبادئ اليهودية لدعم المشاركة في اللاعنف.

إن القيم، والمعتقدات، والشعائر، والمؤسسات، والقادة، والأتباع تؤثر في التصورات المتعلقة بمشروعية المبادئ والممارسات ومصداقيتها للعديد من حركات اللاعنف السياسية إضافة إلى نشرها، وأهمية المُسوِّغات الدينية للاعنف - على سبيل المثال- تعكسها أسئلة مثل: هل هناك مصادر دينية إسلامية توحي، وتُسوِّغ، وتدعم الدعوة إلى حركات اللاعنف القائمة على المبادئ في المجتمعات الإسلامية؟ ما العقبات التاريخية أمام نشر قيم اللاعنف ومعاييره في المجتمعات الغربية رغم استقرارها السياسي وثرواتها الاقتصادية؟ ما التأثير المحتمل للديانة البوذية في نشر اللاعنف في الثقافات الآسيوية المعاصرة؟ ما المصادر الدينية والروحية للهندوسية التي يمكنها أن تضعف هياكل العنف في شبه القارة الهندية؟ تلك أسئلة لاحقة يمكن لعلماء الدين ودراسات السلام بحثها بطرق دقيقة ومنهجية.

أمَّا ما تبقى من هذا الفصل فسيركز بشكل أساسي على دور الدين في نشر ثقافة اللاعنف السياسي، والنظر بشكل خاص إلى دور الزعماء الدينيين المسلمين والمسيحيين في أمثلة حديثة عن المقاومة اللاعنيفة في الشرق الأوسط.

إلا أنه - قبل البدء في المناقشة- من المهم تعريف التعابير بوضوح، فاللاعنف سلسلة من المواقف، والأعمال، والسلوكات الهادفة إلى إقناع الآخرين بتغيير وجهات نظرهم، وتصوراتهم، وأعمالهم، وتلجأ أساليب اللاعنف إلى استخدام الطرق السلمية لتحقيق نتائج سلمية، وهذا يعني أن الفاعلين لا يستخدمون أي صيغة من صيغ العنف (البدني أو النفسي)

للانتقام من أعمال خصومهم، وبدلًا من ذلك يمتصون الغضب والضرر وهم يبعثون برسالة راسخة توحي بالصبر والإصرار على التغلب على الظلم.

السمات الرئيسة لأعمال اللاعنف اشتهر مارتن لوثر كينج الابن ببيانها، وهي:

1. «أنَّه غير عدواني بدنيًّا، بل مشاكس ديناميكي روحيًّا».
2. «أنَّه لا يسعى إلى إهانة الخصم، بل إلى إقناعه بالتغيير من خلال فهم جديد وتوعية أخلاقية؛ بهدف إعادة بناء المجتمعات المحبوبة».
3. «أنَّه موجه ضد قوى الشر أكثر مما هو ضد أشخاص سيطرت عليهم تلك القوى».
4. أنَّه لا يسعى إلى تجنب «العنف البدني الخارجي فقط بل العنف الروحي الداخلي أيضًا».
5. أنَّه يعتمد على «القناعة بأنَّ الكون يقف إلى جانب العدل». (كينج 1957، الصفحات 166– 167) (King 1957, pp. 166–7)[2]

موهنداس غاندي، ومارتن لوثر كينج، وعبدالغفار خان، وثيت نات هانه، والدلاي لاما زعماء روحيون بارزون معروفون عالميًّا، صاغوا تعريفات مختلفة للاعنف ووضعوا العديد من الشروط المفصلة حول الطريقة التي ينبغي على أتباعهم اتخاذها في ممارسة اللاعنف على المستويين الفردي والجماعي، يشترك هؤلاء الزعماء الدينيون والسياسيون في عدد من الصفات المشتركة المتعلقة بممارسة اللاعنف والإيمان به، وهي الآتية:

1. كلما كان الإيمان الروحي وممارسة الأفراد أعمق، كانوا أكثر التزامًا بمبادئ اللاعنف، فعمق التزام الفرد هو مؤشر على قوته الروحية، وفي أحيان كثيرة حين كان هؤلاء القادة يتعرضون للظلم والعداء من أعداء أو مؤسسات جائرة، كانوا يعودون غالبًا إلى إيمانهم يستمدون منه المزيد من القوة والإلهام لمواصلة مسيرتهم (مثل ديزموند توتو، والدلاي لاما، وآخرون كانوا على الدوام يستمدون جذور مقاومتهم من تقاليدهم الدينية الخاصة).

2. معتقدات وقيم اللاعنف لا تنحصر في مجموعة دينية، أو مؤسسة دينية واحدة، أو مجموعة من الكتب المقدسة،[3] فكل واحد من القادة المذكورين أعلاه كان فاعلًا في صياغة قيم ومعتقدات دينية أصيلة من تقاليده الخاصة، واضعًا تلك القيم بلغة دينية أو باللغة الأصلية للدين[4]، مما يتيح لأتباع ذلك الدين فهم معاني اللاعنف واستيعابها، مثل مفهوم غاندي في (الساتياجراها/ قوة الروح أو قوة الحقيقة)، و(أهمسا/ حب اللاعنف)، ومفهوم عبدالغفار خان في (الصبر)، ومفهوم الدلاي لاما وثيت نات هانه في (التعاطف)، ومفهوم كينج في (الشهادة)، جميع تلك القيم تتجذَّر عميقًا في تقاليد كل واحد منهم بطريقة تسمح لهؤلاء الزعماء بالتواصل بفاعلية مع أتباعهم من خلال لغة الدين والروحانية، والمثال على ذلك أن كينج وعظ قائلًا : «الظلام لا يمكنه طرد الظلام، الضوء وحده يمكنه فعل ذلك، والكراهية لا يمكنها طرد الكراهية، الحب وحده يمكنه فعل ذلك» (1967، ص. 62)، كذلك لم يترك غاندي أي مجال للشك في أنه على الرغم من أنه قد يغضب، فإن عدم تعاونه يستمد جذوره من الحب وليس الكراهية.
3. انطلق هؤلاء القادة الدينيون في وضعهم للإطار الروحي للاعنف، من موقع أقلية دينية وليس من الإطار الديني الرئيس المسيطر في تقاليدهم الدينية الخاصة، ولو وافقت شخصيات دينية من السلطة على تفسيراتهم للنصوص الدينية، فقد عارض الجميع نشرها في المجال السياسي أو لغايات سياسية، مثال ذلك العديد من الزعماء المسيحيين الذين لم يختلفوا مع الأسس اللاهوتية لإطار عمل كينج في اللاعنف، ورغم ذلك ناقشوا أو اعترضوا على دعوته لنشر تلك التعاليم بهدف تغيير نظام الحكم الأمريكي، ومثل ذلك أن بعض رجال الدين المسلمين الذين لا يختلفون مع المصادر الدينية للاعنف أو يقبلون بتلك المبادئ فإنهم يعارضون نشرها وممارستها في النضال ضد بعض الأعداء أو الحكام المستبدين (أبو نمر 2012)، والزعماء الدينيون اليهود الذين أقروا بأن هناك تقاليد غير عنيفة في الديانة اليهودية لا يؤيدون بالضرورة تطبيق تلك التقاليد في تعابير سياسية (مثل

ذلك عدد ضئيل من الحاخامات تبنَّـى أعمال اللاعنف ضد الاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية).

4. اعتمدت المقاومة اللاعنيفة المدفوعة بحوافز دينية - جزئيًّا- على الكاريزما القوية وغير العادية لهؤلاء الزعماء، الذين تمكنوا من أن يكونوا قدوة لأتباعهم وتقديم أساس روحي وديني قوي لإطار عملهم المقاوم، وبالتالي، وإضافة إلى العديد من العوامل الأخرى، كان لوفاة أمثال هؤلاء الزعماء غير العاديين أهمية كبيرة في انحسار حركات المقاومة تلك، وتبرز هذه النقطة إذا أخذنا في الحسبان استهداف هؤلاء القادة بالاغتيال مثل غاندي ولوثر كينج؛ بوصفها أعمالًا تهدف إلى إضعاف تلك الحركات.

5. في موازاة دعوة هؤلاء الزعماء الدينيين للمقاومة اللاعنيفة، هناك على الدوام فصائل ومجموعات أخرى ضمن مجتمعهم الديني تدعو للمقاومة العنيفة وتمارسها أو تتبنى إستراتيجيات عسكرية[5]، فالمسلمون الهنود عارضو عبدالغفار خان، وغاندي واجه مقاومة ضارية من الكهنة الهندوس والمؤسسة الدينية، على أي حال لا ينبع هذا التحدي دائمًا من التقاليد الدينية نفسها، لذلك، وفي حين أن مذاهب جميع الديانات الرئيسة تؤكد المسالمة ومعارضة القتل، فإن هناك الكثير من الانتهاكات لتلك المذاهب عمليًّا، وثمة تعقيد آخر ينبع من التفسيرات المختلفة لنصوص الدين وألفاظه، ومن قيام بعض الشخصيات الدينية بمعارضة العنف وقبول آخرين به، مثال هذا التعارض بين المعتقد والعمل نجده في الوصية المسيحية اليهودية (لا تقتل) التي تتعارض مع قبول القتل من قبل الجنود، وقبول عقوبة الإعدام في بعض الدول، وتبين الأعمال الرهيبة التي اقترفت سابقًا - مثل الحملات الصليبية، والإبادة العرقية في رواندا، والمحرقة النازية، والإبادة العرقية في إندونيسيا، والإبادة العرقية في بنغلاديش عام 1971- أن المعتقدات الدينية لا تمنع العنف دائمًا، وأن المتدينين المناصرين للاعنف المبدئي يتعايشون سواء مع التسامح الديني أو الدفاع عن العنف، وهذا يشير إلى الصراع الدائم

داخل المجتمعات الدينية حول الأعمال والمعتقدات المتعلقة بالعنف، مما يجعل اللاعنف المبدئي خيارًا صعبًا، وبوجه خاص في وجه النزعتان القومية والعسكرية.

النهجان المبدئي والبرغماتي

يمثل القادة الروحيون المشار إليهم أعلاه الدعوة إلى النهج القائم على المبادئ من المقاومة اللاعنيفة المتجذرة عميقًا في الأخلاقيات والقيم الدينية، مقابل المقاومة اللاعنيفة المعتمدة على حسابات ميكانيكية أو برغماتية أو إستراتيجية لما يمكن أن يكون أكثر الأساليب فاعلية في محاربة أنظمة ظالمة، ويقدم (مركز ميتا للاعنف) تعارضًا مقتضبًا جليًّا لهذين النهجين، ويصف النهج البرغماتي أو الإستراتيجي للاعنف بأنه مسار يترك الباب مفتوحًا للعنف في حال (لم ينجح) اللاعنف، حيث يقول:

> «اللاعنف القائم على المبادئ ليس أكثر فاعلية على المدى القصير وحسب، بل هو قادر أن ينقل الإنسانية نحو نمط جديد؛ كونه يشتمل على نظام آخر من المعتقدات التي تتعلق بالطبيعة البشرية والعلاقات الإنسانية، فاللاعنف الإستراتيجي - على سبيل المثال- لم يزل يفترض أن الوسائل يمكن أن تُسوِّغ الغايات، في حين يقول غاندي: إن الوسائل هي غايات بحد ذاتها».

(مركز ميتا للاعنف، بلا تاريخ)

ويمكن تعريف النهج الإستراتيجي أو البرغماتي للاعنف على أنه إطار عمل يركز على التعرف إلى التقنيات والإستراتيجيات الفاعلة لمواجهة نظام القمع، مع مراعاة تقليل الخسائر البشرية ودمار البنية التحتية إلى أدنى حد، ومن خلال نزع الشرعية عن الحكام وقواعد السلطة التي يرتكزون عليها، فإن نشطاء اللاعنف الإستراتيجيين يعملون على إسقاط نظام القوانين القائم، ويسعون إلى وضع نظام جديد مكانه يقوم على قيمهم السياسية والأخلاقية، فاستبدال نظام الحكم الجديد بالنظام القديم هو هدف العديد من حركات اللاعنف الاستراتيجي[6]. (انظر الفصل الرابع لمطالعة المزيد عن اللاعنف الاستراتيجي).

لا تنجح المقاومة الإستراتيجية اللاعنيفة إلا إذا كانت هناك استعدادات كافية لها، ويجب أن تكون المجموعة جاهزة للدخول في مثل هذه المقاومة، وبشكل خاص تهيئة الظروف الضرورية لمقاومة جماهيرية فاعلة غير عنيفة، فمنذ نهاية الحرب العالمية الثانية كانت هناك زيادة كبيرة في الاهتمام بأساليب اللاعنف في المقاومة، مما أتاح للدارسين أن يكشفوا بطريقة منهجية شروط القيام بمقاومة فاعلة، والمثال على ذلك أن سيبلي (1944) ذكر أربعة شروط رئيسة للقيام بدفاع إستراتيجي ناجح غير عنيف له أهمية أوسع حين يحل (الغزاة) محل(النظام و/ أو معارضيه)، وهي :

1. عدم تقديم أي خدمات أو إمدادات للغزاة.
2. عدم إطاعة أي أوامر باستثناء أوامر السلطات المدنية الدستورية.
3. عدم إلحاق أي إهانة أو أذى بالغزاة.
4. تعهد جميع المسؤولين العامين بأن يموتوا ولا يستسلموا. إلا أن المرء قد يجادل أيضًا بأن هذه الشروط تنطبق على نهجَيْ المقاومة الإستراتيجية القائمة على المبادئ.

وقد أشار مؤيدو اللاعنف الإستراتيجي إلى انتقادات عديدة للنهج المبدئي، تتضمن الآتي:

1. نكران الذات المطلق غير الممكن لجميع الأفراد.
2. ضرورة القيام بتغيير اجتماعي مسألة حاسمة لا تحتمل الانتظار، والإصرار على النهج المبدئي.
3. لا يعتنق جميع الناس الروحانية.
4. كي يكون لنهج اللاعنف صلة بالشؤون الدولية، فلا يمكنه أن يعتمد على التصوف، والشخصيات الدينية، ورجال الدين، والشهادة، أو الشخصيات السياسية المُهمَّشة التي تخفي حساسية معينة حول أين يمكن العثور على (السياسي)؛ في الجهة (العلمانية) أم في الجهة (الدينية).

5. مسألة أخرى تتعلق بالنقطة الأخيرة، لن تقوم القوى الدولية للدول بتفكيك أنظمتها العسكرية من أجل اتباع القيم والمعايير الدينية والأخلاقية؛ بوصفها درعًا يحميها من العنف والعدوان.

من الواضح أن الحجة نفسها يمكن استخدامها ضد نهج اللاعنف الاستراتيجي، إلا أن مطلب الالتزام الروحي يضيف طبقة أخرى من المقاومة بين السياسيين الذين يتدربون غالبًا على فصل الدين عن السياسة، ويتجنب اللاعنف القائم على المبادئ النظر إلى تغيير نظام سياسي ظالم بوصفه غاية في حد ذاته، بل ينظر إلى التحول الأخلاقي البشري على أنه الهدف الأول في الدعوة إلى اللاعنف، وهكذا فإن النضال من أجل تغيير نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا انطلاقًا من نهج للاعنف قائم على المبادئ، قد ركز على تغيير الأفراد البيض والسود بغض النظر عن طبقتهم الاجتماعية أو انتسابهم السياسي، إن هدف النهج المبدئي للاعنف هو تحويل الأفراد من الداخل بناء على قيم أخلاقية محددة، والاستفادة من هذا التحول الداخلي في تغيير أنظمة القمع، وفي حالة الزعماء الدينيين فإن تلك القيم تستمد من تقاليدهم الدينية[7]، هكذا دعا كينج إلى الزمالة بين جميع الأمريكيين وجميع الشعوب - مستخلصًا ذلك من الفهم المسيحي للمصالحة والعلاقات الصحيحة التي يقوم عليها (المجتمع المحبوب) - في حين شدد الدلاي لاما على أن يكون التعاطف الإنساني المقياس الرئيس للتفاعل البشري.

وعلى الرغم من التعارض بين هذين الإطارين من اللاعنف، فهناك عدد من الصفات المشتركة بينهما، ومثال ذلك أن كلاهما يشتركان في هدف تغيير نظام الحكم، أو نظام حكم قمعي، وكلاهما يستخدمان أساليب متماثلة (مثل الإضرابات، والاحتجاجات، والمقاطعة، ... إلخ/ حسب ما بيَّنا في الفصل الثاني)، وغالبًا ما يعتمد فشل أو نجاح أي منهما على عوامل مشابهة تتعلق بمستوى الاستعداد، والتخطيط المنهجي، وإدامة الموارد، واستخدام وسائل الإعلام، وتوعية الجماهير، وهيكل القيادة، وانضباط الأتباع، والبيئة الثقافية للحركة.

ديناميكيات اللاعنف المبدئي

يرى أتباع اللاعنف المبدئي أنه صحيح أخلاقيًّا وفعال، ويعتمد جزئيًّا على أخلاقيات المسؤولية (تشايلدرس 1982) (Childress 1982)، وهو يستند إلى قدسية الحياة البشرية (يضع مقاوم اللاعنف حياته في يد خصمه ويأتمنه عليها)، وقد أبرز تشايلدرس ثلاث سمات للمقاومة اللاعنيفة القائمة على المبادئ، هي : الاعتراف بالحدود المقدسة للعمل، وافتراض طوعي بوجود مخاطر، وإحساس بالمساواة، فمقاوم اللاعنف يُعرِّض نفسه للاعتداء البدني، والإصابة، والموت، والاعتقال، ويتحمل مخاطر أكبر معتمدًا على إحساس الخصم بالمسؤولية الأخلاقية (لكن ليس بثقة تامة)، وافتراض أن الأخير يمكن أن يتحكم بأعماله ويمتنع عن قتل من يقاومه أو إصابته.

ينسجم هذا النهج مع تمييز غاندي بين (لا عنف الضعيف) و(لا عنف القوي)[8] على أنه قوة فاعلة للتغيير، ويشبه التمييز بين فكرة (استبعاد العنف) حيث العنف غير ممكن، و(اللاعنف) الذي يشتمل على قرار أو التزام طوعي، وتؤثر هذه الفروقات في الخصم بطرق عديدة، ويرى تشايلدرس (1982، ص20) (Childress (1982, p. 20) أن السماح للخصم بأن يشعر بأنه آمن بمعرفة أن المقاوم لن يؤذيه بدنيًّا، فيه قدر أكبر من القوة، ويكون بالتالي أكثر فاعلية من أن يستمد المقاومون شعورًا بالأمن من خلال حماية أنفسهم بالسلاح.

ويشير هذا إلى عنصر آخر للنهج القائم على المبادئ في اللاعنف، وهو - تحديدًا- أن المعاناة مقبولة بشكل عام بوصفها مكونًا لا بد منه للنجاح[9]. والحقيقة أن غاندي صرح قائلًا: «المعاناة هي قانون البشرية، والحرب قانون الغاب، لكن المعاناة أقوى بما لا يُقاس من قانون الغاب؛ لأنه يبدل الخصم ويفتح أذنيه المغلقتين لصوت العقل ... المعاناة وليس السيف، وهي علامة الانتساب للجنس البشري» (انظر بوسّ 1957؛ استشهد به بارآش وويبل 2009، ص460) (see Bose 1957; cited in Barash and Webel 2009, p. 460). ولا يعتمد هذا النوع من المعاناة على السلبية أو التضحية بالذات، بل إنه نشط وفيه نوع من المواجهة، «وينبغي ألا نخلط بينه وبين المعاناة السلبية أو عدم المقاومة، فالعمل اللاعنيف يشتمل على معاناة في

المقاومة، وفي عدم التعاون، أو عدم الإذعان» (تشايلدرس 1982، ص. 21) (Childress 1982, p. 21). المعاناة التي يولدها اللاعنف من الحملات اللاعنيفة هي التي غالبًا ما تثير مشاعر الظلم لدى طرف ثالث، وليس من الخصم حسب ما يتوقع المرء، وتعتنق معظم التقاليد الدينية قيمة وتجربة المعاناة بوصفها جزءًا من الرحلة الروحانية للفرد والجماعة، وأنظمة المعتقدات هذه تتيح المجال لقيام رابط مميز بين اللاعنف القائم على المبادئ والدين[10].

إن فصل الشخص عن المشكلة، أو فصل الشرير عن فعل الشر، هو السمة المهمة الثالثة لحملات اللاعنف المبدئي، إذا استهدف مقاوم اللاعنف الأفعال وليس الناس الذين يقومون به، فيصبح الصراع غير شخصي، مما يسمح بقيام شعور بالثقة لدى الخصم وفي الوقت نفسه يحافظ على تسليط الانتباه باستمرار على مصادر الظلم، وتوفر أساليب اللاعنف المبدئي مجالًا واسعًا للناشطين لفصل المشكلة عن العمل الخاطئ أو نظام القمع؛ بسبب الإيمان بالرابطة الإنسانية وافتراض وجود شيء مقدس في كل إنسان، وهكذا كان في وسع كاهن بوذي - اعتقل مدة أربعة وثلاثين عامًا في سجن صيني- أن يسامح الحراس وأن يعانقهم بعطف لإنسانيتهم، فطوال تلك السنوات في السجن لم يتعاون أو يعترف بأنه ارتكب خطأ، وكان قادرًا على الاحتفاظ بكرامته الإنسانية بفضل قناعاته الدينية[11].

الدين والمقاومة اللاعنيفة في الانتفاضات العربية 2011

كانت حركات 2011 السياسية- العلماني منها والديني- مذهلة، مع سقوط أربعة أنظمة من حقبة ما بعد الاستعمار (تونس، ومصر، واليمن، وليبيا)، وأنظمة أخرى تواجه حركات جماهيرية (البحرين، وسوريا، ولبنان)، وأخرى تجري إصلاحات لتهدئة الاحتجاجات (السعودية، والأردن، والمغرب)، وإن إحدى السمات المهمة للعديد من حركات اللاعنف تلك كان استخدام الهوية الدينية لحشد الدعم، وفي حين لم يزل الكثير من عدم اليقين يحيط بالمستقبل السياسي في دول مثل مصر، فإن من الواضح بأن الحشد الجماهيري لقوى اللاعنف (من قبل حركات الشباب وأحزاب دينية وسياسية علمانية وقادة مخضرمين)

قد أثبت أنها إستراتيجية مهمة لزعزعة أنظمة حقبة ما بعد الاستعمار عصفت بالنسيج السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي لتلك المجتمعات، وبالنسبة للعديد من المراقبين في المنطقة، وخلافًا للناشطين المخضرمين، قد يبدو سقوط الأنظمة الاستبدادية فيما أطلق عليه (الربيع العربي) مفاجئًا، إلا أن الدكتور عماد صيام من المجموعة المصرية (كفاية) قال: «قضيت 25 عامًا من عمري في انتظار هذه اللحظة؛ لذلك لن أترك الساحة قبل انهيار النظام» (أبو نمر 2011) (Abu-Nimer 2011).[12]

هناك كثير من الأمثلة على اللاعنف الإستراتيجي في تاريخ الشرق الأوسط (كراو وآخرين 1990؛ ستيفان 2009) (Crow et al. 1990; Stephan 2009)، ونشر مثل هذه الطرق ليس جديدًا، سواء من الناحية الثقافية أو الدينية، ومن تلك الأمثلة أنه يمكن للمرء أن يذكر العصيان المدني الجماهيري الإيراني، والإضرابات، وعدم التعاون لمواجهة الديكتاتورية الإيرانية وإسقاطها في المدة بين عامي (1977 و 1979)، ومقاومة دروز سوريا الاحتلال الإسرائيلي لهضبة الجولان، ولاسيَّما حملتهم لرفض الهوية الإسرائيلية ومواجهتهم اللاعنيفة للجنود الإسرائيليين، ونزع سلاحهم، والتفاوض من أجل إطلاق السجناء، وتقديم الحلوى للجنود الإسرائيليين حين اجتاحوا قراهم، وثورة الأرز 2005 التي استخدمت وسائل الإعلام الاجتماعية لحشد مئات الآلاف لتحرير لبنان من قوات الأمن والجيش السوري، والحركات المصرية المختلفة، من الكفاح ضد قوى الاستعمار البريطاني في 1919 إلى حركة (كفاية) الحديثة التي بدأت في العام 2003 اعتراضًا على غزو الولايات المتحدة للعراق، وانضمت في ما بعد إلى جماعات أخرى في تحدي نظام مبارك.

ورغم أن تاريخ المنطقة غني بأمثلة المقاومة اللاعنيفة، إلا أن السمة الرئيسة للحركات المعاصرة هي استخدامها الشعارات، والمعتقدات، والمراجع الدينية لإيصال رسالتها، فدراسة الدين واللاعنف في بيئة شرق أوسطية أمر مهم بشكل استثنائي اليوم؛ بسبب التحولات السياسية في الأحزاب والحملات الإسلامية التي شكلت قوة سياسية رئيسة في الاحتجاجات ضد الأنظمة المصرية والتونسية والليبية والسورية والبحرينية

والأردنية واليمنية. ورغم أن هناك اختلافات صارخة بين الحركات السياسية الإسلامية في كل واحدة من هذه الدول، إلا أن استخدام إستراتيجية اللاعنف وأعماله لإيصال وجهات نظرها ومطالبها وزيادة نفوذها السياسي كان رائعًا، فثورات اللاعنف التي اجتاحت العالم العربي - بوجه خاص في الحالات التونسية والمصرية واليمنية- تحدَّت عددًا من الأساطير والتصورات الوهمية عن المجتمعات العربية والحركات الدينية السياسية غير العنيفة التي كان المحللون الأمريكيون والأوروبيون وفئة معينة من العرب يحملونها منذ بواكير حقبة ما بعد الاستعمار، والتي أفرزت الأنظمة السلطوية، وتشمل تلك الأساطير:

الأسطورة الأولى: المجتمع العربي (سلطوي) بشكل أساسي، وقد جادل العديد من المحللين الباحثين بأن المواطن العربي العادي، وبسبب الصفات السلطوية للعديد من المجتمعات العربية، غير قادر على إسقاط قائده، ومع ذلك - حسب ما شاهدنا في مصر وتونس- تم تنظيم الناشطين بفاعلية في مجموعات لا تعترف بالفوارق الطبقية، مع هياكل (أو شبكات) تنظيمية أفقية تحدَّت أسطورة الحاجة إلى (شخصية أبوية) تتقدَّم وتقود الأمة نحو ثورة سلمية أو عسكرية[13]، وثمة أمثلة عديدة تُظهر بأن قادة الحركات الإسلامية الشابة كانوا فاعلين في حشد أعداد كبيرة من أتباع اللاعنف في تلك المجتمعات (الديموقراطية الآن 2011)، رغم أن تلك الحركات لا تستمد جذورها بالضرورة من اللاعنف المبدئي، وبدلًا من ذلك فإنهم يتكونون غالبًا من حركات جماهيرية تتبع نهجًا إستراتيجيًّا مع قلة من القادة من أصحاب المبادئ يحاولون المحافظة على تعبئة مختلف القوى.

الأسطورة الثانية: نسيج المجتمع العربي المسلم العشائري هو بمثابة قيد، فغالبًا ما توصف طبيعة المجتمعات العربية العشائرية بأنها عقبة رئيسة تمنع الحركات السياسية والاجتماعية من أن تسقط الأساليب بطريقة سلمية، لأن المحللين يقولون بأن تلك الأساليب وأجهزتها الأمنية ستتلاعب بالشبكات والتكتلات العشائرية؛ كي تنجح في السيطرة على المجتمع كله (بركات 1993) (Barakat 1993). والواقع أن الزعماء الليبيين والتونسيين والمصريين واليمنيين فشلوا في تطبيق هذه الإستراتيجية لبث الانقسام في صفوف المحتجين، على الرغم من أن بعض المجموعات القبلية ساندت أنظمتها، إلا أن الغالبية العظمى من عامة الناس في هذه البلاد واصلوا دعم العملية السلمية المطالبة بالتغيير السياسي، كما تحدى الزعماء القبليون في ليبيا واليمن الأساليب الحاكمة، ففي اليمن -

مثلًا – تمكن آلاف المحتجين من تشكيلة واسعة من القبائل من تنظيم مسيرات ومظاهرات سلمية لتحدي النظام رغم الجهود التي بذلها مختلف السياسيين لبث الانقسام في الحركة، بناءً على الانتماءات القبلية والمذهبية والإقليمية، وبالتالي، وخلافًا لافتراضات المحللين الغربيين، فإن الانقسامات العرقية لا تشكل على الدوام عائقًا، حيث إن المحتجين قد أكدوا وحدتهم وتضامنهم الديني متجاوزين الاختلافات العرقية والمذهبية.

الأسطورة الثالثة: المقاومة اللاعنيفة تتعارض مع الإسلام، منذ هجمات أيلول 2001 وإعلان الحكومة الأمريكية الحرب على ما تسميه بِـ (الإرهاب الإسلامي)، تمسَّك العديد من صناع السياسة والأفراد العاديين بوجهة نظر أساسية عن الإسلام أو المسلمين تربط أتباع هذا الدين بالعنف، وعليه فإن حركات المقاومة اللاعنيفة لا تُعَدُّ مسارًا قابلًا للتطبيق لتحقيق التغيير السياسي في المجتمعات المسلمة والعربية، إلا أن الحركات الإسلامية ومن خلال حملاتها السلمية ضد أنظمة الحكم في تونس ومصر والأردن، بينت مدى فاعلية القيادة السياسية الدينية الملتزمة بحركة سياسية إستراتيجية لا عنيفة؛ إذ صرَّح الزعيم السياسي الإسلامي التونسي راشد الغنوشي، وآخرون في مصر مثل أبو العلا ماضي – في مناسبات عديدة قبل وخلال وبعد الثورة- بأن النضال السلمي أو النضال المدني هو السبيل الوحيد لمواجهة حكام تونس، والجماعات الإسلامية في مصر كانت مبدعة للغاية في حشد المحتجين من خلال المساجد، فمن خلال خطبة الجمعة كان الأئمة يدعون إلى المقاومة اللاعنيفة، ويناشدون الأتباع لاحتلال الشوارع والساحات العامة، الأمر الذي قاد إلى حشد الملايين بعد خطبة الجمعة، إضافة إلى ذلك تبنَّى الإسلاميون المصريون – مثل المجموعات المصرية الأخرى- شعار (سلمية) بوصفه شعارًا رئيسًا طيلة مدة مواجهاتهم مع النظام، وقد تبنَّى هذا الشعار في ما بعد الجماعات المحتجة في لبنان، واليمن، والبحرين وجماعات أخرى في العالم العربي.

الأسطورة الرابعة: أن الشبان في العالم العربي لا يبالون بالسياسة، وأنَّهم جَهَلَةٌ سياسيًّا، فتم دحض احتمالات تجنيدهم للقيام بتفجيرات انتحارية حين شاهد العالم ملايين الشباب يسيرون بسلام ويرددون شعارات وحدوية وعالمية مثل (حرية، ومساواة، وكرامة للجميع) و(مسلمون ومسيحيون متحدون ضد القمع)، وقد استخدم القادة الإسلاميون الشباب الأقوياء المنظمين بشكل جيد في وسائل الإعلام والإنترنت؛ لإرسال رسائلهم وطنيًّا

وإقليميًّا وعالميًّا مُبيِّنين للجميع أنهم قادرون على وضع إستراتيجية سياسية والتفاوض على مطالبهم دون المساس بقواعدهم الانتخابية، واستغل القادة الشباب في اليمن القيم والمعايير الدينية لضمان الانضباط والنظام في مسيراتهم، مثال ذلك أن المنظمين قرروا فصل المشاركين في المسيرات حسب الجنس، مراعين أوقات الصلاة ومنسقين مسيراتهم بحيث لا تتعارض مع صلاة الجمعة، وفي العديد من الحالات أعلنوا صيامهم، وحين كانت قوات الأمن تهاجمهم كانوا يحتمون داخل المساجد[14].

الأسطورة الخامسة: صيغة اللاعنف لا يمكن تدجينها، لم يتبع أي من المحتجين المصريين أو التونسيين صيغة غربية من حملات المقاومة اللاعنيفة، حسب قول بعض الناس غداة ثوراتهم[15]، والواقع أنه طيلة العقد الماضي كانت هناك ورش عمل للتدريب على اللاعنف وعلى أدوات التغيير الاجتماعي في المجتمعَيْن المذكورَيْن، إلا أن التنظيم العفوي والإستراتيجيات والأعمال المبتكرة التي طبقت في التعامل مع النخبة الحاكمة والنظام بيَّنت أن المجتمعات العربية والإسلامية غنية بالثقافات المحلية والمصادر الدينية (الشعائر والقيم والرموز)، التي يمكن صياغتها لإنشاء حركات لا عنف تقوم على المبادئ وإدامتها، هذه النظرة المُعمَّقة في التعابير المحلية عن اللاعنف - ولاسيَّما مميزاته المبدئية والدينية (دمج الرموز الإسلامية، والشعارات في حملات الاحتجاج اللاعنيفة، والصور، وأيام الإضراب)- أمر موجه ومفيد، وبوجه خاص للمجتمعات المدنية والدوائر الحكومية الغربية التي دعمت مشاريع المجتمع المدني المحلي العربي والإسلامي ومجموعاته؛ بهدف تصدير نماذج عن التغيير الاجتماعي والسياسي من خلال تمويلهم لمناهج وأفراد معينين[16].

حركات اللاعنف العربية لا تعتمد على (النهج المبدئي)

تباينت مستويات ودرجات اعتماد الحركات والثورات العربية المختلفة على تبني إستراتيجيات اللاعنف، إلا أنه كان في كل ثورة - ابتداء من 2010- مجموعات وأصوات تمكنت من الحث بشكل منهجي على استخدام وسائل اللاعنف، ففي الحالة التونسية مثلت تلك المجموعات الأغلبية وتمكنت من إسقاط النظام بأقل قدر من الدماء والعنف، أمَّا التجربة السورية في اللاعنف فقد هيمن عليها رد الفعل الوحشي الذي مارسه النظام والمجموعات المسلحة التي تقاتل ضده، والوضع المتوسط بين هذين المثالين المتطرفين

هو سعي قادة الجماهير في مصر والبحرين واليمن إلى إبداء قدر مهم من الانضباط والتخطيط الإستراتيجي في القيام باحتجاجاتهم السلمية.

تبدو مسألة وافتراضات ما إذا كان القادة والناشطون مقتنعين تمامًا وملتزمين بنهج (اللاعنف المبدئي) وكأنها مقياس غير ذي صلة وغير واقعي عند التفكير في نجاح تلك الثورات، والحقيقة أنه من غير الواقعي توقع أن يلتزم ملايين الناس في مصر واليمن وتونس بالكامل بإطار عمل موحد موجه روحيًّا في اللاعنف المبدئي، إذا أخذنا في الحسبان طبيعة الأنظمة القمعية وأهدافها، وطبيعة القيادة، والتجربة والسياق التاريخي في تلك الدول، فحين يكون جميع القادة والأتباع مخلصين تمامًا للاعنف المبدئي، عندها يكون من السهل الحفاظ على الانضباط، ويزيد احتمال أن يرتد العنف الذي يمارسه الحكام عليهم، إلا أن مثل هذه التوقعات ليست واقعية، وينبغي ألا تستخدم لتقييم نجاح الحركة أو فشلها، المقياس الوحيد للنجاح يجب أن يكون قدرة تلك المجموعات على التخطيط الإستراتيجي، وتزويد أتباعها بالقدرة على تحمل الضغط الخارجي الذي يدفعهم لحمل السلاح والابتعاد عن نهج اللاعنف، فهل يمكن الوصول إلى تلك النتيجة من دون النهج المبدئي؟ الجواب هو نعم بلا شك، حيث تبين العديد من الأمثلة إمكانية تحقيق تغيير في النظام من خلال مناهج اللاعنف الإستراتيجي.

في سياق الثورات العربية، كانت الأصوات الرافضة للعنف من حيث المبدأ ظاهرة بالتأكيد في أوساط القادة والأتباع (مثال ذلك: جودت سعيد في سوريا، والأئمة والرهبان المصريون الذين جلسوا في ميدان التحرير في مصر، والفائزة بجائزة نوبل توكل كرمان من اليمن)، إلا أن هؤلاء لا يشكلون الأصوات المسيطرة، فحديث قادة المحتجين وخطابهم لا يشير بشكل خاص إلى النهج المبدئي، بل يخص نهجًا إسلاميًّا مبدئيًّا في اللاعنف، والحقيقة أنه يمكن القول بأن الجماهير في العالم العربي أخذت (تعيد اكتشاف) قوتها كي تحل محلل الأنظمة الديكتاتورية، لكن إعادة الاكتشاف هذه لم تكن قائمة على قناعة عميقة في (نهج مبدئي في اللاعنف) سواء كان إسلاميًّا أو غير إسلامي، بل نبع من إدراك ثلاثة

أمور على الأقل، هي: أن النظام لن يتغير من تلقاء نفسه (بالإصلاح)، وليس ثمة وسيلة أمام الجماهير لمواجهة النظام سوى بتدفق الآلاف إلى الشارع لتعطيل النظام الحالي، وأن في الإمكان القيام بذلك.

للأسف، لم يكن لدى القادة والجماهير في جميع تلك الحالات خطط لليوم الذي يلي انهيار النظام، لهذا نشهد جميعًا قدرًا كبيرًا من الصدمات والفوضى والانجرار إلى مواجهات عنيفة بين مختلف القوى المتنازعة على تشكيل مستقبل تلك المجتمعات، وهذه الحقيقة هي نتاج عوامل عديدة أثرت في تشكيل الثورات في المجتمعات ذاتها، والافتقار إلى إستراتيجية شاملة للاعنف ليس إلا واحدًا من تلك العوامل التي أسهمت في ولادة ردود الفعل القوية.

الخلاصة

من المستحيل فك ارتباط حركات اللاعنف العربية عن الهوية الدينية الإسلامية أو المسيحية، وحسب ما ورد في الخطابات والشعارات وطرق تنظيم الناشطين، فقد عمل منظمو الحركات والحملات على دمج دعواتهم إلى المسيرات والمقاومة السلمية بالهويات الدينية والثقافية المحلية، والواقع أنه من دون الشعارات والخطابات الدينية، ما كان في وسع أي قائد علماني أو ديني حشد أنصاره ودفعهم للسير خلفه ضد الأنظمة القمعية، وإن المسألة - في حالة السياقات الإسلامية- ليست ما إذا كان في الإمكان استخدام الشعارات والخطابات الدينية في حشد الجماهير وإدامة هذا الحشد، بل في مدى استخدام الخطاب الديني في تعزيز إطار عمل إستراتيجي أو مبدئي في اللاعنف، وباستخدام الأطر الدينية لحشد المقاومة اللاعنيفة، ربما يكون المنظمون قد ساهموا (من دون وعي منهم) في تشكيل وتدعيم الهويات الطائفية والدينية التي كانت موجودة بالفعل في تلك المجتمعات، إضافة إلى ذلك فإن الاستخدام المفرط للشعارات والهويات الدينية في مثل تلك الحملات غالبًا ما يستبعد الأصوات غير الدينية والعلمانية في المجتمع، ولذا ينبغي قياس نطاق الإشارات

الدينية وطبيعتها وكثافتها في حركات اللاعنف الإستراتيجية والمبدئية بعناية، ونشرها بحكمة خدمة لتلك الحملات.

الصندوق 1.3 غاندي السوري

كان جودت سعيد واحدًا من أشهر قادة اللاعنف الديني المبدئي في العالمين العربي والإسلامي، وبعد جولة من الخطابات في الولايات المتحدة وكندا في العام 2012، عاد الرجل البالغ من العمر 81 عامًا إلى وطنه سوريا لاستئناف نضاله ضد النظام السوري، كتب الشيخ سعيد مجموعة من الكتب والمقالات عن الأسس الروحية والدينية الإسلامية التي تدعم المقاومة اللاعنيفة، ويعد كتابه (كن مثل ابن آدم) واحدًا من أفضل المنشورات المعروفة بالعربية التي تبرز المبادئ الدينية للاعنف الإسلامي، ولم يكتفِ الشيخ سعيد بالوعظ على مدى خمسين عامًا (منذ العام 1966، حين نشر كتابه مسألة العنف في العمل الإسلامي)، بل مارس عظاته بمناهضة نظام عائلة الأسد منذ بداية الثمانينيات في القرن العشرين، حيث اعتقل مرات عديدة، وفي العام 2000، حين صوت بِـ (لا) في الاستفتاء على بشار الأسد، استعاد أحد المسؤولين ورقته ووضع مكانها (نعم)، وحين اعترض الشيخ سعيد أعيد اعتقاله مجددًا.

كان تأثير الشيخ سعيد على المعارضة السورية اللاعنيفة واضحًا خلال المرحلة المبكرة من الثورة، حين قام العديد من أتباعه بتنظيم مسيرات وحملات اعتراض في مدينة درعا، فقتل العديد منهم على يد النظام السوري خلال الشهور الأولى من الثورة، منهم غياث مطر، وهو شاب في السادسة والعشرين من العمر اعتُقل في 26 أيلول/ سبتمبر من العام 2011، ووفق منظمة هيومن رايتس ووتش، فإنه عُذِّبَ حتى الموت.

عارض جودت سعيد استخدام السلاح من قبل الجيش السوري الحر والقوات الحكومية، ودعا إلى التخلي عن جميع الأسلحة، وفي آذار/ مارس من العام 2012 لجأ إلى المبادئ والمعتقدات الدينية الإسلامية حين عارض الادعاء القائل بأن لدى المعارضة السورية حق أخلاقي في استخدام السلاح للقتال ضد النظام، قائلًا:

«هؤلاء الذين يرفضون أن يروا ما زالوا يؤمنون بقوة السلاح، هؤلاء الناس يؤمنون بقوة السلاح وليس بقوة الحقيقة». هذا الموقف المبدئي وسط حرب شهدت الكثير من الفظائع التي يقوم بها النظام ضد المدنيين يعكس قوة الاقتناع بمبادئ اللاعنف التي عاشها الشيخ سعيد حتى وفاته في العام 2012.

تشير الأدلة الجديدة عن حالات شرق أوسطية (مصر، وتونس، واليمن، وسوريا، والأردن) إلى أن الناشطين في كل واحدة من هذه البلدان قد اختاروا الصيغ الإستراتيجية من المقاومة اللاعنيفة بدلًا من تعزيز أطر اللاعنف المبدئي، والأمثلة على مثل هذه القرارات الإستراتيجية يمكن مشاهدتها في الاعتماد الشديد على القوات العسكرية والأمنية للتعامل مع مجموعات المعارضة العلمانية التي أصبحت أقلية بعد انهيار الأنظمة، إضافة إلى ذلك لجأ عدد من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين المصريين إلى إستراتيجيات العنف بعد قيام الجيش بعزل الرئيس مرسي، إضافة إلى ذلك تركز جزء مهم من خطابات الإخوان المسلمين في تلك المجتمعات على العدالة ومعاقبة قوات أمن النظام السابق، ونادرًا ما أشارت تلك الخطابات إلى قيم التعاطف أو التسامح أو المصالحة، بل على العكس من ذلك استخدم المتعاطفون مع الإخوان التخويف والتهديد بالعقاب في خطبهم ضد الشرطة والجنود الذين يواجهونهم، وهذا النوع من إستراتيجيات المقاومة يبعد الأتباع عن نهج اللاعنف المبدئي نحو إستراتيجية عابرة من اللاعنف مع التزام وانضباط أقل.

الخيار الواضح للاعنف الإستراتيجي من قبل كثير من قادة وأتباع الإخوان المسلمين ومجموعات المعارضة العلمانية، يجب ألا يقودنا إلى التقليل من قيمة الاختراق التاريخي بقيام ملايين المسلمين والمسيحيين في العالم العربي بالسير جنبًا إلى جنب لإسقاط الديكتاتورية، ومن المهم أيضًا تأكيد الإبداع في صياغة إستراتيجيات اللاعنف ووسائله من قبل معارضين ذوي دوافع دينية ارتجلوا طرقًا جيدة للتعبير عن معارضتهم وغضبهم وشعورهم بأنَّهم ضحايا ضد قواتهم الأمنية والديكتاتورية السياسية بطاقة وعفوية لا تُصدَّق، إضافة إلى ذلك فهناك الكثير من الأفراد الذين انضموا وعملوا في مختلف تلك الحركات في مصر، وتونس، واليمن، وسوريا وكانوا منضبطين وملتزمين باللاعنف المبدئي (قادة من أمثال خالص جلبي، وجودت سعيد في سوريا، وتوكل كرمان في اليمن، وغيرهم).

تشير الإنجازات المذكورة أعلاه إلى ضرورة تغيير تلك التصورات الأسطورية عن طبيعة المجتمعات العربية والإسلامية من قبل المسلمين وغير المسلمين، مؤمنون سلميون

وغير عنيفين يخرجون في مسيرات تضم الآلاف هي الصورة الجديدة التي ينبغي أن تكون حاسمة لإعادة النظر في السياسات الحكومية في العالم العربي وأوروبا والولايات المتحدة ،حول طريقة الرد على حركات الاحتجاج ذات الدوافع الدينية والمعارضة السياسية، أمَّا التحدي الأعظم الذي يواجه المصريين والتونسيين والليبيين واليمنيين فهو الحفاظ على مكتسبات ثوراتهم وإدامة الطاقة والتضامن الوطني التي ولَّدتها حملات المقاومة اللاعنيفة والقوية، ومع ذلك ومن منظور نمط اللاعنف، قدَّم المصريون والتونسيون والآخرون الذين يقومون بحملات اجتماعية وسياسية من أجل التغيير السلمي في العالم العربي، مثالًا تاريخيًّا آخر قويًّا لمواجهة النمط الواقعي في العلاقات الدولية[17]، ومن المؤكد أن الثقافة العالمية في اللاعنف قد كسبت - على الأقل- بضع أمثلة ناجحة تثبت أن قوة الشعب التي تحشد للتغيير هي أكثر إنسانية، وأقل تكلفة بكثير من القنابل.

يمكن استخلاص عدد من النتائج من مناقشة الربيع العربي والمقاومة المبدئية اللاعنيفة، وهي أولًا : بغض النظر عن طبيعة حركة اللاعنف (سواء كانت إستراتيجية أو مبدئية) ثمة ضرورة كبرى بأن يقوم الناشطون السلميون وغير العنيفين بتطوير تخطيط شامل وامتلاك مهارات بناء القدرات لقيادة الانتقال من واقع سياسي إلى واقع آخر، ثانيًا: في بيئة مثل الربيع العربي، من الضروري استغلال الهويات الدينية (الرموز والشعائر والمعتقدات) لحشد أغلبية من الناس وحملهم على تأييد وسائل اللاعنف، فالمناشدات أو الخطابات العمومية، والشمولية، والإنسانية لا تتحدث إلا إلى جزء من الجمهور؛ لأن الأغلبية لم تزل بحاجة إلى وضع الدين والثقافة في سياقات تدعو للمقاومة اللاعنيفة، ثالثًا: من المؤكد أن استخدام نهج اللاعنف المبدئي هو أكثر فاعلية في الحفاظ على الانضباط في ممارسة اللاعنف الذي يضعف الثقة في الأنظمة الديكتاتورية حين تلجأ إلى العنف، إلا أنه من غير الواقعي توقع أن تتقيد غالبية الناس وأن تؤمن وتستوعب هذا النهج، ويميل النهج الإستراتيجي في اللاعنف لأن يكون الإطار الأول للعمل في أوساط الجماهير أو حتى غالبية القادة، رابعًا: ثمة حاجة لمزيد من البحوث لتحري الشروط والهياكل التي تجعل الجماهير والغالبية العظمى من نخبة القادة يتبنون النهج المبدئي في اللاعنف أكثر من الإستراتيجي.

أسئلة للمناقشة

1. ما العلاقة بين الدين واللاعنف؟
2. كيف أمكن لنهج اللاعنف المبدئي أن يغير أساليب أو نتائج بعض الانتفاضات العربية؟
3. ما الأساطير الموجودة في الغرب والمتعلقة بإمكانية اللاعنف في الشرق الأوسط، وما قيودها؟
4. ما جوانب الضعف والقوة في النهج المبدئي للاعنف؟

اقتراحات لمزيد من القراءة والبحث

- أبلباي، سكوت (2000) Appleby, Scott (2000) تناقض المقدس: الدين، والعنف، والمصالحة. لانهام (Lanham)، ماريلاند: رومان ،ليتلفيلد MD: Rowman & Littlefield.
- كافانو، ويليام ت. (2009) Cavanaugh, William T. (2009) أسطورة العنف الديني: الأيديولوجيا العلمانية وجذور النزاعات الحديثة. أكسفورد: مطبعة جامعة أكسفورد.
- ديتس، ريتشارد (2009) Deats, Richard (2009) اللاعنف النشط عبر العالم www.peaceworkersus.org/
- media/documents/active_nonviolence_across_the_world.pdf [updated version of "The Global Spread of Active Nonviolence," Fellowship (July–August 1996)].
- نجيم، مايكل (2004) غاندي وكينج Nojeim, Michael (2004) Gandhi & King: قوة اللاعنف في المقاومة ويست بورت، كونيتيكت: براجر (Westport, CT: Praeger).